٢

ولما كان العصر العباسى ، توزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات ، وتفخم الملك ، فكان فى كل ولاية أمير وفى كل إقليم حاكم ، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون ويتقربون إليهم ويتكسبون عندهم ويطلبون قضاء حاجة وبلوغ أوب . فبشار حين مدح وزير المهدى ، اعترف بأنه طال انتظاره للثواب ، وحين توجه إلى غيره من آل برمك قال إنه حلب بشعره راحتى الممدوح فدرّ كما يدرّ السحاب مع الرعد ، ذلك لأن الأخلاق دبّ إليها الفساد فكثر القول وراج النفاق ، وأصبح التصديق فى محنة ؛ فلم يكن يؤمن الممدوحون بكل ما يقال ، وإنما كانوا يعدون الكلام بضاعة وتجارة يروّجها من يستطيع ، ويسيرها من أوغل فى البيان وتصرّف فى الشعر ، من غير أن تصدر غالباً عن قلب مؤمن بما يقول ونفس مخلصة فيما تنشد . وكان الشعراء يحسون هذا ، ويعلمون أنهم فى حاجة إلى أن يؤكدوا المديح ، وإلى أن يسرفوا فى التعظيم والمبالغة ، لعلهم ينالون ويعودون بالجائزة والعطية والمنحة فدخل المديح غلوّ عجيب ، واضطر الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء فى مدحهم إلى مرتبة الخلفاء والملوك ، وإلى أن يسبغوا عليهم أثواباً فضفاضة ، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل فى الخلفاء وغير الخلفاء ، لتقارب الصور والصيغ ، وأحسّ الشعراء بهذا فحرّموا الإطالة فى المديح وكرّهوا الإسراف فيه فقال شاعرهم :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

وأصبح المديح حرفة ومهنة ، يبذل صاحبها ماء وجهه فى سبيل المال ، وغدا الفحول من الشعراء يكرهون أن يكونوا فى سلك الشعراء ينظمهم اسم واحد لكثرة